ثقافة الاستئصال ورفض الآخر

تكلمنا على أعراض كثيرة لتخلف الشعوب، وهنا سنستعرض أحد هذه الأعراض، وهي ظاهرة المناطقية والإقليمية والقبلية، ومهما تعددت المصطلحات فجميعها تصب في معنى واحد: فعندما ينحصر الإنسان في مكان معين ضمن مجموعة ينتمي إليها من البشر يميل إلى الاعتقاد بأنه على صواب في كل ما يقول ويفعل، وأنه يمتلك الحقيقة خلافاً للآخر، ولكي يؤكد هذا المعنى لخلفه وعشيرته، يبدأ بإطلاق الصفات السلبية على الآخر مهما يكن هذا الآخر، فقد يكون حارة أخرى، أو منطقة أخرى، أو حياً آخر، أو إقليماً آخر، أو مدينة أو بلداً آخر، بل قد يكون الآخر هو جنس بشري مختلف أو عرق مختلف أو دين مختلف.

هذه الظاهرة موجودة في كل الشعوب دون استثناء؛ ففي أمريكة مثلاً يصف الأمريكيون الأشخاص ذوي الأصول البولندية بالسذاجة، والبولنديون هم عكس ذلك. كذلك يُنسب إلى الشقراوات صفة الغباء في غالب الأحيان، وهنا الاعتبار للون البشرة، في حين نجد أن معظم النكات الشامية تتناول الحمصي بالسذاجة، مع أن نسبة الذكاء عالية جداً بين الحماصنة، كذلك يوصف الكردي بأنه متشبث برأيه يصعب تغييره، أما البدوي فيستخدم في المثل للدلالة على عدم الاتفاق مع شخص ما فيقال: "**فراق البدوي بعبا، قال: بسوق العبي**" (العبا أي العباءة)

وهذه التعبوية الشعبوية موجودة لدى جميع الشعوب، لكن الشعب الراقي عادة يحاول أن يحد من هذه الظاهرة، فالشعوب الراقية تعرف أن هذا الكلام لم يعد يصلح لأن يكون كلاماً يحمل حقيقة، بل يحمل تاريخاً وإرثاً توارثه الناس لكي ينسبوا الحقيقة لأنفسهم ويثبتوا أن الآخر على خطأ.

obeikandl.com

فإذا عدنا إلى البيئة الشامية نجد أن في الأمثال الشعبية ما يعكس هذا النوع من التمييز بين حي وحارة ومنطقة، وهذا نوع من ضيق الفكر.

فمثلاً حين نقول عن لون قماش ما بأنه "**مفلِّح**" إذا كان زاهي الألوان، فنحن بهذا القول نصنف الناس وكأن الفلاح هو صنف آخر، وهذا نوع من الانطواء وضيق الأفق والنتن الفكري. لا يخرج هذا النوع من الأقوال عن كونه نوعاً من التعصب العرقي الديني القبلي الطائفي الشعبوي..... إلخ.

كذلك نجد أن أهل الشام وُصموا بالبخل، حيث تناقل الناس عنهم أنهم يقولون للقادم من السفر: "**بتنام عنا ولَّا بالأوتيل**"، أو يسألون: "**متى جئت؟...ثم: متى ستسافر**" وهذا فيه تجن على أهل الشام الكرماء.

هذا النوع من الأمثال هو جزء من النتن الفكري المتوارث الذي ينبغي أن نتخلص منه.

إن هذا النوع من العقلية عقلية استئصال الآخر، فعندما يضيق الفكر بما يحويه وتقل موارد المعرفة لدى الإنسان، فإنه ينكمش على ما لديه من معارف محدودة، ويجتر ما في ذهنه، ويقدس ما في نفسه، ويحاول أن يعطيه مصداقية، وأول ما يقوم به هو رفض الآخر مهما يكن الآخر، ثم ينطلق في مرحلة أخرى إلى الاستئصال الذي هو نتيجة طبيعية للرفض.

فمثلاً عندما تضع بعض الشعوب السكر على الطعام بدل الملح، تجد أن الشعوب الأخرى تنكر عليها ذلك، وكأنهم خرجوا عن الحقيقة وعن تقاليد الطعام، ويصبحون مصدر سخرية، مع أن هذا الأمر على بساطته لا يخرج عن كونه حرية شخصية في مسألة بسيطة كالطعام.

إن مثل هذه القضايا قد تبدأ بأمور بسيطة كالطعام واللباس والشراب، لكنها ستمتد حتماً إلى الفكر، فتأتي كل جماعة بشرية محملة بفكرها ومقدساتها وتقيس الآخر على مقاييسها قبل أن تراه وتتعرفه، ويعقب ذلك الاستئصال،

obeikandl.com

فإما أن يكون الآخر على مقاسي، وإلا فهو لا يرقى إلى المستوى الذي أنا عليه فأستأصله من فكري ووجداني.

ويعبر عن هذه الظاهرة السؤال الذي يسأله معظم الناس عندما يلتقون مع شخص لأول مرة: من أين أنت؟

إذا أردنا الشفافية هنا فإن هذا السؤال لا يقصد به التعارف، وإنما يقصد به التصنيف للتأسيس لطريقة التعامل مع هذا الشخص حسب المناطقية، ثم يعقب ذلك إما القبول أو الإلغاء التام له، وهنا يجب أن نتصالح مع أنفسنا ونعترف بهذا العيب الكبير، ولا بد أن ننبذ هذا النوع من التفكير لنقول لأجيالنا القادمة أن هذا النتن يجب أن ينقرض وألا يورث وأن يلغى إلى الأبد.

يقول محيي الدين بن عربي:

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي إذا لم يكن ديني إلى دينه دان
وأصبح فؤادي قابلاً كل صورة فمرعى لغزلان وديراً لرهبان
وكعبة حجاج وبيتاً لصائم وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه فالحب ديني وإيماني

لا بد لنا أسوة بأي شعب يسعى نحو الرقي والمصداقية، أن ننطلق من الضيق إلى السعة ومن إلغاء الآخر إلى قبوله.

إن دخول العالم كله التكنولوجية من أوسع أبوابها، وانتماء الجميع بلا استثناء - ونحن منهم - إلى القرية الواحدة الكبيرة يتطلب أن نبحث عن السعة والمصداقية فيما نملك من ثقافة.

إن عصر التكنولوجية العابر للحدود وللجغرافية يتطلب فكراً جديداً، ويقتضي مقاربات مختلفة تنأى عن المقارنة بالآخر، سواء حياً أم حارة أم مدينة، بل نقارن أنفسنا بالأوسع وهو الكون، فمثلاً الطفل الياباني الآن لا يقارن بالأطفال اليابانيين، بل تجاوزوا السباق بين بعضهم بعضاً ليقارنوا أنفسهم بأطفال العالم،

فوجدوا في بعض الأمور أن الطفل الياباني متأخر عن غيره في العالم فجعلوا من هذا الأمر قضية.

لذلك نحن الشعوب يجب أن ننطلق ونقارن أنفسنا بما نمتلك مع من حولنا، وما الذي هو حولنا؟ هل هو الحي أم الجغرافية؟ لا بل الإنسان والبشر كائناً من كان، سواء في الطعام أم الملبس أم المشرب، والإنسان الذكي هو الذي يتبنى ما يعتقد أنه صحيح أو الأفضل.

من الضروري أن نتجه نحو كسر الحواجز النفسية والعقلية التي وضعناها بيننا وبين الآخر كي تكون الأجيال القادمة أكثر عقلانية، وأوسع فكراً، وقادرة على التقاط الحقيقة أينما كانت والاستفادة منها، ومسلحة بكل ما يجعلها أكثر انفتاحاً وترحيباً بأي فكرة أو شخص أو شعب، وقياسه على مقياس الحق وعلى مبدأ التنافس والفائدة العامة.

obeikandl.com